الدين الحنيف كلمة الله الباقية للناس أجمعين إلى يوم الحساب

واقعية .. الشريعة الإسلامية

شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون الإسلام هو كلمة الله الباقية للناس كافة وإلى قيام الساعة، فقال جل جلاله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (المائدة:3)، فاصطفى الله سبحانه وتعالى هذا الدين، والذي هو أفضل الأديان وأشرفها وأكملها وآخرها، وجعل الشريعة التي جاء بها مهيمنة على الشرائع السابقة وحاكمة عليها.

وحتى تتحقق هذه الخاتمية استلزم ذلك أن تتصف بصفات وتتميز بخصائص تعطي لها الصلاحيّة لكل زمان ومكان.

فمن ذلك: اتصاف الشريعة بالواقعية، ونعني بالواقعية: أن الشريعة بتعاليمها ليست مجرّد قيم عُليا تحلق في سماء التنظير المجرّد الحالم، ولكنها تنبثق من واقع الناس وتراعي واقعهم، وتتلاءم مع فطر الناس وتكوينهم، وميولهم ورغباتهم، وتباين قدراتهم وملكاتهم، وما يلحقهم من نقائص وحالات ضعف، فضلاً عن مراعاتها لظروف الواقع وملابساته.

وشريعة الإسلام لا تغفل طبيعة الانسان وتفاوت الناس في مدى استعدادهم لبلوغ المستوى الرفيع الذي ترسمه لهم، فلذلك بيّنت للناس الحدّ الأدنى من الكمال الخلقي والعقدي والعبادي المطلوب، وحدّدت الأطر العامّة من القضايا التشريعيّة التي لا يجوز الانفكاك عنها، وأن ذلك يقتضي ممارسة جملة من المأمورات (الفرائض)، والابتعاد عن أخرى (المحرّمات)، وجعلت فيما بينهما مساحة هائلة من الأمور المباحة الطيّبة التي لا تبعة عليها.

وواقعيّة الشريعة تتجلّى في إلزام الناس بما يطيقون فعله أو الانتهاء عنه، فلا تكليف بما لا يُطاق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ (الحج:78)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ (البقرة:286)، فلا إصْرَ ولا أغلال، بل هو دين سمحٌ يسير على العباد.

وواقعيّة الشريعة أيضاً في موازنتها بين بين المثاليّة الحالمة التي نادي بها بعض الفلاسفة، – حيث تتناسى ما في النفس من نوازع النفس ونقائصها وعيوبها، وتتطلب من الجميع التعامل مع بعضهم كالملائكة، ولا مجال فيها للخطأ أو الكبوة، وغيرها من مقتضيات المثاليّة الفارغة التي تعيش في الخيال وفوق عنان السماء– فالإسلام بين هذه المثاليّة، وبين الرضوخ التام للواقع والإذعان له، مهما كان مجافيًا للقيم والأخلاق، ومميّعا للنظم والمناهج والشرائع، وبذلك يسلك طريقه للتّزن بين هاتين الهوّتين.

ومن ملامح واقعيّة الشريعة: عدم التكليف بما لا يُطاق، كما جاء في الآية سابقة الذكر، وما يُفهم من قوله عز وجل: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم﴾ (التغابن:16)، فلا واجب مع وجود العجز، ولا محرم حال الضرورة، كما وضع الله سبحانه وتعالى عن هذه الأمة المشقة والآصار التي كانت على الأمم السابقة، فلا مؤاخذة على النسيان والخطأ، ولا مجازاة على تصرّفات المكلف حال الإكراه، كما قال المصطفى –صلى الله عليه وسلم– : (إن الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه) رواه ابن ماجه ، والمشقة تجلب التيسير، إما بإسقاطه عن المكلف، كسقوط كل واجب مع وجود العجز، أو إسقاط بعضه كالاكتفاء بالاستجمار الشرعي عن الاستنجاء، والتخفيف الحاصل للمريض والمسافر، ونحو ذلك من الرُخص المعروفة في أبواب الفقه.

ومن ملامح واقعيّة الشريعة، أنها أقرّت وعلى وجه العموم كلّ المبادئ التي تحقق العدالة وتؤسّسها، كما هو الحال مع أحكام القصاص التي تعطي المظلوم كامل الحق في الانتصاف ممّن ظلمه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ ولكم في القصاص حياة يا اولي الألباب لعلكم تتقون﴾ (البقرة:197)، وفي آية أخرى: ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ (البقرة:194)، لكنّنا نرى أن الشريعة مع إقرارها لمبدأ العدل والتشديد في أمره، قامت في الوقت ذاته بفتح المجال للسمو الخلقي والتسامي عن حظوظ النفس وأخذ حقوقها، فأرشدت إلى فضيلة العفو وجماليّة الصفح، وتجد هذه الثنائيّة المتوازنة: «المعاملة بالعدل– المعاملة بالفضل» في مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾ (الشورى:40).

وإذا كان الله جل جلاله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ويخذل الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة، فذلك لأن إقرار العدل سببٌ في استقرار أمور الناس، لكن فتح باب العفو والرحمة والإحسان يزيل الضغائن والأحقاد بين الأفراد، ويزيد من لحمة النسيج الاجتماعي فيما بينهم.

وكلما تأمّل المرء فيما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده في كلّ قضيّة جزئيّة، ثم طاف ببصره أرجاء الديانات الباطلة، اتّضحت له ملامح هذه الواقعيّة وارتباطها بأسس العقيدة ومنظومتها.

قصة آية

« فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم »

روى النسائي في «السنن الكبرى» عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما انصرف المشركون عن أحد، وبلغوا الروحاء –موضع على نحو خمسين كيلو متراً من المدينة في الطريق إلى مكة–، قالوا: لا محمداً قتلتموه، ولا الكواعب –النساء– أردفتم، وبئس ما صنعتم، ارجعوا، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فندب الناس، فانتدبوا، حتى بلغوا حمراء الأسد –موضع جنوب المدينة يبعد عنها حوالي اثني عشر كيلو متراً باتجاه مكة–، فأنزل الله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ (آل عمران:172) وقد كان أبو سفيان قال للنبي صلى الله عليه وسلم: موعدك موسم بدر، حيث قتلتم أصحابنا، فأما الجبانُ فرجع، وأما الشجاعُ فأخذ أُهْبَة القتال والتجارة، فلم يجدوا بها أحداً، وتسوقوا، فأنزل الله تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة، ليس فيه عن ابن عباس.

هذه الرواية تفيد أن الآية نزلت في خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر الصغرى، وبهذا قال عكرمة ومجاهد؛ وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في أحد، إذ قال: موعدنا بدر من العام المقبل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قولوا: نعم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدر، وكان بها سوق عظيم، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه دراهم، وقرُب من بدر، فجاءه نعيم بن مسعود الأشجعي، فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت، وأقبلت لحربه، هي ومن انضاف إليها، فأشفق المسلمون من ذلك، لكنهم قالوا: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، وصمموا، حتى أتوا بدراً، فلم يجدوا عدواً، ووجدوا السوق، فاشتروا بدراهمهم، أدْماً –جمع إدام: وهو كل ما يؤكل مع الخبز– وتجارة، وانقلبوا، ولم يلقوا كيداً، وربحوا في تجارتهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾.

غير أن الصواب في سبب نزول هذه الآية ما قاله الجمهور، وهو أنها نزلت في غزوة حمراء الأسد. وقد وصف القرطبي قول عكرمة ومجاهد بأنها نزلت في بدر الصغرى بأنه قول شاذ.

وقد ساق ابن القيم ما جرى سياقاً مرتباً، بيَّن فيه سبب نزول هذا الآية، فقال: «ولما انقضت الحرب، انكفأ المشركون، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذراري والأموال، فشق ذلك عليهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: (اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن هم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها، لأسيرن إليهم، ثم لأناجزنهم فيها).

قال علي: فخرجت في آثارهم انظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة، ولما عزموا على الرجوع إلى مكة أشرف على المسلمين أبو سفيان، ثم ناداهم: موعدكم الموسم ببدر فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (قولوا نعم قد فعلنا) قال أبو سفيان: (فذلكم الموعد)، ثم انصرف هو وأصحابه، فلما كان في بعض الطريق، تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنادى في الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم، وقال: (لا يخرج معنا إلا من شهد القتال) فقال له عبد الله بن أبي: أركب معك؟ قال: (لا) فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف، وقالوا: سمعا وطاعة. واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال: يا رسول الله! إني أحب ألا تشهد مشهداً إلا كنت معك، وإنما خلفني أبي على بناته، فأذن لي أسير معك، فأذن له فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد، أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه، قد تحرقوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم، قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح، فرجعوا على أعقابهم إلى مكة، ولقي أبو سفيان بعض المشركين يريد المدينة، فقال: هل لك أن تبلغ محمداً رسالة، وأوقر لك راحلتك زبيباً إذا أتيت إلى مكة؟ قال: نعم، قال: أبلغ محمداً أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله، ونستأصل أصحابه، فلما بلغهم قوله، قالوا: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل × فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾.

وبما ذكره ابن القيم يتبين أن سبب نزول الآية خروج المسلمين إلى حمراء الأسد، وإن كان قد ذكر أن أبا سفيان قد ناداهم، فقال: موعدكم الموسم ببدر، وهو ما ذكره عكرمة أيضاً في الحديث، لكن عكرمة جعله سبب النزول، وابن القيم وغيره جعلوه موعداً، وسبب النزول خروجهم إلى حمراء الأسد.

والحاصل أن الآية الكريمة نزلت لما استجاب المؤمنون، وخرجوا للقتال بعد تحذيرهم وتخويفهم منه، فلم يُضعف ذلك في عزيمتهم، بل زادهم إيماناً بتوكلهم على الله، وكانت العاقبة السارة لهم، حيث انقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء، بل واتبعوا رضوان الله، والله عظيم الفضل والإحسان، حيث قادهم إلى مواقع فضله ورحمته في خروجهم إلى حمراء الأسد.

مواقف من حياة النبي

عن ربيعة بن كعب الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: (كنت أخدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لي: يا ربيعة ألا تزوج؟، قال: قلت: والله، يا رسول الله، ما أريد أن أتزوج، ما عندي ما يقيم المرأة، وما أحب أن يشغلني عنك شيء، فأعرض عني، فخدمته ما خدمته، ثم قال لي الثانية: يا ربيعة، ألا تزوج؟، فقلت: ما أريد أن أتزوج، ما عندي ما يقيم المرأة، وما أحب أن يشغلني عنك شيء، فأعرض عني، ثم رجعت إلى نفسي، فقلت: والله، لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يصلحني في الدنيا والآخرة أعلم مني، والله، لئن قال: تزوج، لأقولن: نعم يا رسول الله، مرني بما شئت .

قال: فقال: يا ربيعة، ألا تزوج؟، فقلت: بلى، مرني بما شئت، قال: انطلق إلى آل فلان، حي من الأنصار، وكان فيهم تراخ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقل لهم: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسلني إليكم، يأمركم أن تزوجوني فلانة، لامرأة منهم، فذهبت، فقلت لهم: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسلني إليكم، يأمركم أن تزوجوني فلانة، فقالوا: مرحبا برسول الله، وبرسول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله، لا يرجع رسول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا بحاجته، فزوجوني والطفوني، وما سألوني البينة .

فرجعت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حزينا، فقال لي: ما لك يا ربيعة؟، فقلت: يا رسول الله، أتيت قوما كراما، فزوجوني وأكرموني والطفوني، وما سألوني بينة، وليس عندي صداق، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: يا بريدة الأسلمي، اجمعوا له وزن نواة من ذهب، قال: فجمعوا لي وزن نواة من ذهب، فأخذت ما جمعوا لي، فأتيت به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: اذهب بهذا إليهم، فقل: هذا صداقها، فأتيتهم، فقلت: هذا صداقها، فرضوه وقبلوه، وقالوا: كثير طيب .

قال: ثم رجعت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حزينا، فقال: يا ربيعة، ما لك حزين؟، فقلت: يا رسول الله، ما رأيت قوما أكرم منهم، رضوا بما آتيتهم، وأحسنوا، وقالوا: كثيرا طيبا، وليس عندي ما أولم، قال: يا بريدة، اجمعوا له شاة، قال: فجمعوا لي كبشا عظيما سمينا، فقال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: اذهب إلى عائشة، فقل لها: فلتبعث بالمكتل الذي فيه الطعام، قال: فأتيتها، فقلت لها ما أمرني به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت: هذا المكتل فيه تسع آصع شعير، لا والله، إن أصبح لنا طعام غيره، خذه، فأخذته، فأتيت به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبرته بما قالت عائشة، فقال: اذهب بهذا إليهم، فقل: ليصبح هذا عندكم خبزا، فذهبت إليهم، وذهبت بالكبش، ومعي أناس من أسلم، فقال: ليصبح هذا عندكم خبزا، وهذا طبيخا، فقالوا: أما الخبز فستكفيكموه، وأما الكبش فاكفونا أنتم، فأخذنا الكبش، أنا وأناس من أسلم، فذبحناه وسلخناه وطبخناه، فأصبح عندنا خبز ولحم، فأولمت، ودعوت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأجابني) رواه أحمد .

وفي موقف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع ربيعة بن كعب الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ الكثير من الفوائد، منها:

ـ اهتمام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأصحابه ـ لا سيما الفقراء منهم ـ وحرصه عليهم، وتلمس احتياجاتهم، وشفقته بهم، وصدق الله ـ تعالى ـ في قوله عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة الآية: 128)، وفي ذلك تعليم للأمة على اهتمام المسؤول برعيته .

ـ معرفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأحوال أصحابه واحتياجاتهم، وبما يصلح لهم دنياهم وآخرتهم، فقد قال لربيعة ـ رضي الله عنه ـ: (يا ربيعة ألا تَـزَوَّجُ؟)، كما أن فيه رجاحة عقل ربيعة ـ رضي الله عنه ـ وثقته ويقينه في حكمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويظهر ذلك من قوله ـ رضي الله عنه ـ (والله لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يصلحني في الدنيا والآخرة أعلم مني) .

ـ سرعة استجابة أهل البنت لأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفرحهم بذلك واعتبارهم له بركة وكرم، وقولهم: (مرحبا برسول الله، وبرسول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله، لا يرجع رسول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا بحاجته، فزوجوني والطفوني)، وفي ذلك منقبة عظيمة من مناقب الأنصار تضاف إلى مناقبهم ـ رضي الله عنهم ـ الذين مدحهم الله ـ عز وجل ـ بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر الآية: 9) .

ـ استجابة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وتعاونهم في جمع المهر وإقامة ولية زواج ربيعة ـ رضي الله عنه ـ تعطي صورة المجتمع المسلم في المدينة المنورة، والذي قام على السمع والطاعة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأخوة والإيثار والتكافل الاجتماعي .

دعاء الكروب

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عنْهُما أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم كَانَ يقُولُ عِنْد الكَرْبِ : « لا إِلَه إلاَّ اللَّه العَظِيمُ الحلِيمُ ، لا إِله إلاَّ اللَّه رَبُّ العَرْشِ العظِيمِ ، لا إِلَه إلاَّ اللَّه رَبُّ السَمَوَاتِ ، وربُّ الأَرْضِ ، ورَبُّ العرْشِ الكريمِ » متفقٌ عليه .

اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت الله ، الله ربي لا أشرك به شيئا .رواه ابن ماجه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" دعوة النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت :" لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له ..صحيح الترمذي